



كان النظام السوري يعتقد أن تهيئة المدن يجب أن تسقى تهئة الأرياف، وأن إخراج الناس من شوارع المدن سيفضي حتماً إلى تلاشي مظاهرات البلدات المتوسطة والصغيرة، ثم القرى، وأن القضية ليست غير مسألة وقت، فالخطة صحيحة وهناك من ينفذها بلا هواة، والشعب مشتت وخائف وبلا قيادة، والمعارضة مجزأة أو عاجزة، وليس في الأمر مفاجآت محتملة، وإن هي إلا أيام أو أسابيع قليلة وينتهي كل شيء.

وبالفعل، ركز النظام جهده على المدن، وشرع يفاخر بأن دمشق وحلب ليستا محتجتين أو أنه تم تطهيرهما من الحراك، وخاصة الشعبي والواسع منه. لا بد هنا من رواية قصة دمشق الحقيقة، فقد بدأت الثورة في ضواحيها الشرقية ثم امتدت إلى ضواحيها الجنوبية فالجنوبية الغربية فالغربية فالشمالية، حتى بدا وكأن الحراك يطوق المدينة ويضعها بين فكي كاماشة عملاقة بشرياً وجغرافياً. عندئذ، انقض النظام عليها في الشرق أولاً بدءاً من دوما، ثم نشر جيشه في كل مكان وكرر احتلال وقمع قرى وبلدات الغوطتين الشرقية والغربية، وأعلن أنه تخلص من الطوق وقهـرـ الشعب، فـماـ كانـ منـ ضـواـحيـ المـديـنـةـ الدـاخـلـيـةـ (ـالـمـهـاجـرـيـنـ،ـ رـكـنـ الـدـيـنـ،ـ بـرـزـةـ،ـ مـسـاـكـنـ بـرـزـةـ،ـ الـقـابـونـ،ـ جـوـبـرـ،ـ الـمـيـدـانـ،ـ كـفـرـ سـوـسـةـ،ـ وـأـخـيـراـ المـزـةـ)ـ إـلـاـ أـنـ اـنـفـضـتـ بـدـورـهـاـ وـرـدـتـ عـلـىـ الطـوـقـ الـخـارـجـيـ بـطـوـقـ دـاـخـلـيـ،ـ عـجـ النـظـامـ إـلـىـ الـيـوـمـ عـنـ فـكـهـ أوـ التـغلـبـ عـلـيـهـ،ـ رـغـمـ مـاـ اـرـتكـبـهـ مـجـازـرـ وـعـنـفـ،ـ بـيـنـمـاـ عـادـتـ الـثـورـةـ وـانـشـرـتـ مـنـ جـدـيدـ دـاـخـلـ الغـوطـتـيـنـ الـشـرـقـيـةـ وـالـغـربـيـةـ،ـ دـاـخـلـ ضـواـحيـ الـعـاصـمـةـ الـخـارـجـيـةـ،ـ وـاتـصـلـتـ بـقـوـةـ مـعـ الطـوـقـ الدـاخـلـيـ.ـ كـيـفـ رـدـ النـظـامـ؟ـ عـلـىـ طـرـيقـتـهـ الـمـعـرـوـفـةـ:ـ بـالـعـنـفـ الـمـتـصـاعـدـ وـمـحـاوـلـةـ طـمـائـنـةـ نـفـسـهـ وـأـنـصارـهـ بـالـحـدـيـثـ الـمـتـكـرـرـ عـنـ الـانتـصـارـ النـهـائيـ.

حلب أيضاً قصتها: فقد اعتبرت دوماً مدينة الولاء والهدوء. واستخدمت مع دمشق للقول: إن نصف سكان سوريا (عدد سكان المدينتين) ليسوا مع الثورة، وبالتالي: الشعب موالي للنظام. كان هذا الكلام يقال، عندما كان يوجد في حلب 14 مظاهرة يومية، وفي حلب وريفها أكثر من خمسين مظاهرة تضم مئات الآلاف الأشخاص، وكان الأمن يلقي بطلبة الجامعة من نوافذ أبنية السكن الجامعي أو يقفزون هم من الطوابق العليا، مفضلين الموت على الوقوع في يديه ومواجهة التعذيب. لكن ما يحدث اليوم في حلب لا يترك سبيلاً للحديث عن المدينة الهاشمية والموالية، لأنها لو كانت كذلك لما انتشرت وحدات عسكرية كبيرة مزودة بالدبابات فيها، انضمت إلى نيف ومائة ألف أمني يحتلونها منذ بدء الانتفاضة.

انتقل الحراك خلال الأشهر الأخيرة إلى طور جديد، فقد نجح في احتواء هجوم الجسم، الذي شنته أكثر قوات النظام عنفاً وأفضلها تسلیحاً في كل مكان من أرض سوريا، ثم حرر مناطق هائلة الاتساع من أي وجود سلطي، ربما كانت مساحتها قرابة نصف مساحة البلاد. في هذه الأثناء، ازداد الحراك الإسلامي قوة وبأساً، وتعاظمت المقاومة، حتى إن حمص، التي أراد النظام لهزيمتها أن تقصم ظهر الثورة، ظلت عصية على الإسقاط، وها هي تشمخ بدمارها في وجهه، رغم ما يبذله من جهود مستمرة لقهرها، مع أن هذا لن يفيده حتى معنوياً بعد أن سادت روحيتها معظم مناطق سوريا. ولعل ما يجري من مقاومة في حستا، البلدة الصغيرة الواقعة على طريق دولي والتي لا تبعد غير عشرة كيلومترات فقط عن قلب العاصمة، لهو خير دليل على عجز النظام عن إحداث التحول المطلوب في الصراع، مهما كان جزئياً ومحظوظاً.

شن النظام هجوماً عاماً لم يفض إلى أي نتيجة غير جعل الثورة أصلب عدواً وأشد مراساً، وعامة / شاملة بدورها. وكان فشله هو التحول المهم الذي عرفه الصراع، لأنَّه كان فشلاً أصاب هوامش مناورة النظام التكتيكية، الذي أعقب فشل هوامشه الاستراتيجية، الواضح منذ بدء الصراع، ويعبر عنه بقاء الثورة واتساعها وتجذرها وتصميمها على النصر. بفشل هجومه، الذي نفذته أقوى وحداته، عادت الثورة إلى المدن أو توطنت فيها بقوة غير مسبوقة، وتأكد الفشل في إخراجها منها، بينما توطدت في الأرياف، التي تحولت إلى مناطق يصعب أكثر فأكثر على قواته دخولها أو البقاء فيها، وانقلب جيشه وأمنه إلى قوة جوالة تنتقل من مكان إلى آخر، لأنَّه لم يعد يوجد غير أمكنة محدودة تبقى موالية للنظام، بمجرد خروج دباباته منه.

مع اتساع الحراك جغرافياً وبشرياً، وخروج مناطق واسعة من يد السلطة، انضم في الأيام الأخيرة رافد جديد إليها - وإن بعد تأثير - هو ما يسمونه «البرجوازية السورية» أو باللسان الشعبي: «التجار»، الذين قاموا بإضراب عام في دمشق وحلب بالذات، وأعلنوا بطريقتهم العملية انفلاطهم عن النظام، الذي يفقد تأييد السوريين جماعة بعد أخرى، ويواجه حالة متفاقمة من الطرد إلى خارج المجال المجتمعي بكامله، الذي يبدو أنَّ قواه وطبقاته بدأت تدخل بوضوح إلى زمن ما بعد البعث، وتعلن غربة الحاكم شبه الكاملة عن الشعب المقموع والمقتول، الذي شرع النظام يشن عليه عمليات إبادة منظمة في موجة جديدة من العنف، تستخدم كافة أنواع الأسلحة ضد المدنيين في كل مكان وموقع.

هذا هو رد النظام على موجة الحراك الثانية، التي تحولت إلى ثورة شاملة بكل معنى الكلمة، بعد أن كان بعضهم يأخذ عليه أنه ليس حراك دمشق وحلب، وليس ثورة جميع السوريين، بل هو حراك المناطق المتاخرة قليلة السكان.

تف سوريَا اليوُم أَمَام مفترق طرق: نظام يدفع الأمور نحو الحرب الأهلية، وشعب يقاومه ويرفضها. هنا، في هاتين السياستين المتناقضتين تكمن الموجة الثانية، علماً بأنَّ الرسمية منهما تأخذ البلاد إلى خراب شامل، والأخرى، الشعبية، تعمل لإخراجها من مأساتها المديدة، وإدخالها إلى عالم مفتوح على الديمقراطية والحرية. أي الخيارين سينجح؛ خيار اليأس والموت أم خيار الأمل والخلاص؟ في الواقع القائم اليوُم، تعتبر حظوظ الأمل أكبر من فرص الموت والدمار، رغم ما تتركه الجرائم التي ينظمها أهل الحل الأمني من انطباع بأنَّ تدهور سوريا لن يتوقف عند حد.

يتربَّ على هذه اللحظة المفصلية استنتاجان: أولهما أنَّ الشعب السوري يتخلص من نظامه بوسائله وقواه الخاصة. وثانيهما أنَّ النظام زائل لا محالة، وأنَّ تصرفاته أخذت تسهم في تقويض وجوده، ولم تعد قادرة على إبقاءه في السلطة لفترة طويلة قادمة، لأنَّ الشعب يراكم بصموده الأسطوري مقومات انتصاره!

المصادر: